أوديب.. أعمى على سور بغداد

. مـــــاهـر رجـــــا .

أَخرجُ الآن أعمى من الحربِ.
إنّي فقأتُ عيوني لئلاّ أرى!
لن أرى.
بيدي أن أقولَ مِنَ اليوم: «أنا لن أرى!»
فاتركوا لي عَمَايْ،
كنباتِ الظلامِ يقودُ خيالي إلى وحدتي.
اتركوا بُردتي
في رمال الصحارى
تدقُّ فراغَ العُيون بِصَدر الهَباءْ،
تحدِّق في الموت مِنْ حولنا.
ههنا النَخْلُ أعمى
هنا الأفْقُ أعمى
هنا الماءُ أعمى
هنا الخَيْلُ عمياء..
ونحن نسير معًا في الجنازةِ
نحو مقابرنا في العَماءْ.
.....
أخُطُّ على الرمل بابًا
لأَدْخل منه إلى غُربتي.
أنادي ليفتحَ صوتيْ ممرَّ الغُبارْ.
غداً في ذهول الحكايةِ
يأتي الرُّعاةُ من الغَيمِ كي يحملوني
إلى شَجَرٍ في الأعالي،
أو لَعَلّي سأظهرُ بَعْدَ زمانٍ
كَطَيْفِ القتيل على دمِهِ في الليالي.

في كهوفِ عظامي الصقيعُ..
الصقيعُ يَلُفُّ المَدى من أمامي.
خُذيني إلى دفء رَحْمِكِ،
أمّي خذيني،
وإنْ شئتِ فلتتركيني كَفَيْءٍ
على باب نومكِ.
إنّ الشتاءَ طويلٌ هُنا
وأنا صرتُ أعمى.
...
أَخْرجُ الآن أعمى
فقأتُ نوافذَ عينيَّ كَيْ لا أرى.
لن أرى شَعرَ بغدادَ على كتف التتَري
وقد أَسقطتْ بابَها من عَلٍ كذراع القتيلِ.
لن أرى سيفَها في دمي رافعًا
علمَ الفاتحين غداً.
لن أرى وجهَها هائمًا
كانتباهِ الأسير لبوق انتصار الغزاةِ
على العَرَباتِ يَمُدّ نشيدَ الذُّهولِ.
لن أرى صوتَها جُثةً
غُطّيتْ بالسكون الوئيدِ
على صَهَوَاتِ الخُيولِ.
.....
أَخْرجُ الآن أبكمَ من حَربها؛
قد قتلتُ لساني
لئلاّ أُنادي غداً باسمها!
هل أقولُ لها في ظلام الهزيمة:
«ما زلتِ أمي التي قرأتْ
في خَواطر نَهْرِ الفُراتِ
جميعَ النبوءاتِ عن أحجيات الزمانْ»؟
هل أقول: «هُنا فوقَ صلصالِ كَفّكِ
لامَسَ صَخْرُ المَمَالكِ غُرّةَ شمس البيانْ»؟
هل أظَلُّ أحدِّثُ مَنْ سوف يأتونَ عن خاتمٍ
قد رَمَاهُ مُحَارِبُ يَثْرِبَ في الغزواتْ؟
هل أظلُّ أحدِّثهم عن دَمٍ
وَصْفُهُ للشَّهادةِ يَذْبحُ تَاءَ الصِّفَاتْ؟
هل أعودُ أردّدُ خُطبةَ قَلْبِ الإمامِ
الوحيدِ على الصهواتْ؟
هل أقولُ لها في دُخَانِ الهَزيمة: «نامي

بفَيءِ حُصُونِ الرَّشيد،
ولا تجزعي من قُدوم الغزاةْ؟!»
.....
وما أنتِ بغدادُ!
يا ربُّ ليست ببغداد.. ليست ببغدادَ.
ليس احتفالُ الجنون،
على كلّ هذا الحطام، ملامحَ بغدادَ.
ولستِ هنا اليومَ بغدادَ..!
أنحن أضعناكِ ما بينَ نَهْرٍ ونهرٍ،
وما بينَ قبرٍ وقبرٍ،
وما بين غَدْرٍ وغدرٍ؟
فما أنتِ بغدادُ.. ما أنت بغدادُ!
بغدادُ ما ظهرتْ في رؤايَ، وفي بابها حرسٌ
قد أقاموا الهوادجَ فوق الرماحِ لِمَنْ يَقْتل المتنبّي
وما جزعتْ مرّةً من صحارى الظَّمأ.
لقد مرّ تحت شتاءِ يديْها المغول
فلم يبصروا مطرَ النغمات
على وَتَرِ الآلهات بأسوار «أوروكَ»
ولم يَفْهموا في كتابِ الأغاني
صعودَ حدائقِ بابلَ نحو سَبأ.
.....

التتار على صَدْرِ بغداد!
أحْلمُ.. قولي بأنيَ أحلمُ أوْ أشْعِلي
شمعةً في مَمَرِّ الطُيوفِ
ليَهْرُبَ «طيرُ» الظلامْ.
تَعالي إليَّ على خَفَقَاتِ الأصابعِ
كي تَدْخلي حُلُمي،
وانظُري في خَيَالِ المَنامِ
تَرَيْ وحْشَتي مِثْلَ كهفٍ قَصِيٍّ ينامُ
على شاطئ البحرِ.
نادي، كحُورِيةِ الماء في الليل، لي
أو اعْبري في قوارب صوتكِ
موجَ السُّكونِ إلى وَجَلي.
ألَنْ تُخْبريني بأنيَ أحلمُ؟!
هُزّي مَنَامي كَنَخْلٍ
لأَنهَضَ مِنْ نَكْسَةِ الحربِ.
بَيْنَ السَنَابكِ غَطّي عُيونيَ،
أو فاتْرُكيني
لأفقأَ عيني كي لا أرى.
...
بغداد.. بغداد..!
آهِ يا ابْنَةَ نهريْنِ فاضا بأول حبر الكتابة!
آهِ يا ابنة مَنْ بسّطوا من غموضِ الخليقة

حتى استحال نخيلاً ينادي سحابة!
يا انعكاسَ السماءِ على رقعة العربيَ
تحاورُ نجمًا لتصطادَ سرَّ الفلكْ!
يا اغتباطَ القباب تشيل الحدائق بالبسط الأعجمية
ما بين ساعدِ صخرٍ وهمسة: «ما أجملَك!»
يا مَسيرةَ يومٍ لستة آلاف عامْ!
يا خروجَ ابنِ سينا إلى الليل في الغاب حتى
يفاجئَ ضوءَ نباتِ الحياةِ قبيل المنامْ!
يا سيوفَ الجزيرة!
يا ابْنةَ صوتِ الزمان القَصِيْ!
يا بلادَ ترابٍ وماءٍ تربّي الحقولْ
على عزف قيثارة السموصلي!
يا حنينَ مرافئ سارتْ ورائي وداعًا
فأبكتْ مياهَ الخليج عَلَيْ!
يا العباءاتُ بين الرصافة والجسرِ!
إنّ دمي في يديْك القليلُ
القليل إليك الذي في يديْ.
.....

لأنّي أحبكِ
أَمْسح عيني عن شرفة الناظرين إليك

أنا اليومَ بعدَكِ أعمى.
أنتيجون تَقُود عمايَ بأرضِ البراري.
ابنُ آوى يَنُوح على التلِّ،
والليلُ يَسْكنني يا ابنتي.
ويداكِ على بصري تبكيان،
فلا تغسلي قرحَ عيني بضوء النجومِ
فلن تتخيّل من بعد وجه النهار.
ولا تجزعي من غيابي وحزني.
ابنتي، لا تصلّي لأُبصر.. لا تقتليني!
لعنتي قيدها في دمي
وما من مكانٍ لدينا لنبكي،
وما من نداءٍ يعلِّقنا ههنا بَغْتَةً
كَرِداء السَّراب على درجات الصحاري.
قد نضيع معًا يا ابنتي،
فاتركيني هنا عندما تتعبين.
اِسكبي جسدي في ملامحِ ذئب
وقولي:
«وداعًا
أبي كان يحلمْ.
أبي أَغْرق عينيْهِ في بحرِ دمْ
لأنّ العيون مرايا الألمْ.
وأبي عاد منتصرًا وحدَهُ،
فغداً وحدَهُ لن يرى مشهدَ الآمنين.
لن يرى المنحنين إلى بيرقٍ
للتتارِ على مدخلِ الشرق والقِبْلتيْن.
لن يصدِّق عينًا من الأطلسيّ
لموجِ الخليج تصفِّق للفاتحينْ.
لن يرى علمًا لليهودِ يرفّ على الرافدينْ..
أيُّها القلبُ إبكِ قليلاً لكي لا تموتْ.
أيُّهـا القلبُ أُهربْ قليلاً من الذكرياتِ
لئلا يصدِّعَ وجهَكَ هذا السقوط.
كان أبي قبل أن يَفْقأ عينيْهِ
أجملَ مما أَرى؛
صار أبي بعد أن أطفأ عينيهِ
أجملَ مما يَرى!»
.....
من ممرّ دخول الغزاةِ
أُغادر بوابةَ الشرق وحدي
جئتُ أدخل بغداد حتى أفارقَها
هاربًا في قطيع الضباب
كأنّي حاطبُ ليلٍ
يرى كلَّ شيء ظلالاً،
وعينُ الظلام تظنُّ عَمَاءَ يدي نداءاتِ قتلى
يقومون من لحدهم قلقين لآلامِ أشباحهمَ.
أرى في الطريقِ الطويلِ مقابرَ تَخْرج منها
جيوشُ نبوخذ نصّر كي تَدْفن الأحصنهْ
وورائي دجلة تحت عباءته الآسنهْ،
وورائي كلُّ العواصم تمشي
وراء احتفالِ البلادِ بنصر العدو.
.....
ابنتي، يا ابنتي!
قد رميتُ إليك عِنَان عمايَ،
فقودي ظلامي إلى التيهِ
خلف سقوط المدينهْ.
هنا مرت الحربُ في أمسنا
وما من مكانٍ لنا.
وورائيَ صيحةُ حربٍ،
ورائي نحيبٌ بعيدْ
وخلفي.. أسير أنا
هائمًا قربَ ظلي
والممالكُ تَسْقط خلف الذُّرى.
...
أخرج الآن أعمى لئلاّ أرى.

دمشق